قال خالد وقد أخذ وجهه المنقبض ينبسط، وأخذت شفتاه الممدودتان تعودان إلى مكانهما سواء، بل أخذت تفرق بينهما ابتسامة يسيرة فيها شيء من رضًا وكثير من حزن، قال خالد: ما أدري لم لا تصطنع مهنة الخطباء والوعاظ! فإنك لتحسن القول، وتحسن النفوذ إلى دخائل النفوس. قال سليم وهو يضحك: بل أُحسن الإنباء بالغيب أيضًا! فقد كان بينك وبين أبيك شر منذ اليوم، أليس كذلك؟ قال خالد: بلى. قال سليم: فإنه ينقم منك قلة ما تمنحه من المعونة، وقد أخرجه الغضب عن طوره، فقال لك ما لم تتعود أن تسمع منه. قال خالد: هو ذاك. قال سليم: وقد قمت منه مقام الصبي الذي لا يعرف كيف يجيب، ثم انصرفت عنه مبتسمًا مكتئبًا، فأسرعت إلي لتشركني في ابتئاسك واكتئابك، وتجد عندي تسلية وعزاء. قال خالد: لله أنت! لقد كفيتني مئونة الحديث. قال سليم: اجلس يا بني ورفه عن نفسك، فالأمر أيسر مما تظن، ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى وهو يصيح: أرسلي إلينا قهوة يا أم سالم وأقبلي إن شئت، فابسمي لصهرك، فقد عبست له الحياة. وأقبلت زبيدة ساخطة متضاحكة معًا، تقول لزوجها: أما تنفكُّ ترفع صوتك بكل شيء، وتشرك الناس معك في كل شيء؛ لقد كنت تلوم خالدًا لأنه يجعل وجهه كتابًا مفتوحًا يقرأ فيه الناس من أمره ما يشاءون، فهلا خافتَّ بصوتك وقصرت نجواك على نجيِّك؛ فليس كل الناس يُحسن قراءة الوجوه، ولكن أكثر الناس يحسنون الاستماع لك والفهم عنك إذا رفعت صوتك بكل شيء. قال سليم وهو يضحك لامرأته: ما رأيت أطول ولا أحد من هذا اللسان! قالت زبيدة: إنه لسان امرأة من أهل النار. وأعاد الزوجان على خالد حوارهما الذي قصصناه آنفًا، فضحك له ثلاثتهم وهم يشربون القهوة.

فلمَّا انصرفت زبيدة لبعض شأنها قال سليم لأخيه: اعذر أباك؛ فإنَّ عبئه ثقيل، وموارده أضيق من أن تُعينه على النهوض به، وأعِنْه إن استطعت إلى معونته سبيلا. قال خالد: أما أن عبئه ثقيل فهذا حق، ولكنه هو الذي خلق لنفسه هذا العبء الثقيل، ما حاجته إلى هؤلاء الضرائر اللائي يُكَلِّفنَهُ مِنَ النفقة ما لا يطيق ويجعلن داره جحيمًا؛ وما حاجته إلى هؤلاء الصبية الذين ينبتون في الدار كما ينبت العشب على شاطئ القناة. قال سليم: لُمه فيما بينك وبين نفسك ولكن أعنه، فالأمر الواقع هو أنَّ لديه ثلاث زوجات كلهن ولود. قال خالد: وكيف أعينه بأكثر مما أفعل، وأنا أؤدي إليه معظم ما أقبض آخر الشهر؟! وقد عرضت عليه أن أُؤَدِّي إليه راتبي كاملًا فلم يقبل مني، وطلب أن أتحول عنه بأهلي، فحسبه من عنده من العيال. قال سليم: وقد انتهى بكما الأمر إلى هذا الحد؟ قال خالد: ولولا أنه صرفني فانصرفت لتجاوز الأمر هذا الحد.